وضبط مشكلاتها، وتحرير رواياتها، وتسمية رواتها. وتحقيق ذلك أنه جمع بين شرح المعانى وإيضاحها، وضبط الألفاظ، وذكر من رواها من الحفاظ.

صناعة التأليف بالمغرب

ولقد وقفت فى بعض التعاليق لأحد المتأخرين على كلام فى صناعة التأليف، رأيت أنَّ أجلبه جميعه، لمّا فيه من ذكر بلاغة القاضى عياض، ونصه:

وقد كان للقدماء، رضى الله عنهم، فى تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقى، واصطلاح قروى. فأهل العراق جعلوا من مصطلحهم مسائل مدونة كالأساس، وبنو عليها فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى إفراد المسائل، وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين. وأما الاصطلاح القروى فهو البحث عن ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات وبيان وجوه الاحتمالات والتنبيه على ما فى الكلام من اضطراب الجواب، واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع من السماع، وافق ذلك عوامل الأعراب أو خالفها.

فهذه كانت سيرة القوم رضوان الله عليهم، إلى أن عم التكاسل، وصار رسم العلم كالماحل. ويحقق ما قلناه تصرف التونسى فى تعاليقه اللطيفة المنزع، واللخمى فى تبصرته البارعة الختام والمطلع، إلى غير ذلك من تآليف القرويين وتعاليق المحققين، من شيوخ الإفريقيين.

وقد سلك القاضى عياض فى تنبيهاته مسلك جمع فيه بين الطريقتين والمذهبين وذلك لقوة عارضته، نفعه الله بذلك، وأعاد إلينا من بركاته. انتهى.

وقال فى هذا التعليق فى موضوع آخر ما نصه:

وأغلب تآليف المشارقة الإيجاز، لتمكن ملكتهم من التصرف، مثل كتاب ابن الحاجب، فى فروعه وفى أصوله، والخونجى فى المنطق، وغيرهما، وإن كان الغالب على جل أئمة المشارقة الإطناب، مثل الغزالى والإمام الفخر وغيرهما.

وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فيهقة البلاغة، فى حسن رصف الكلام وانتقائه، مثل عبارة القاضى عياض فى تآليفه، التى لا تسمح القرائح بالإتيان بمثلها والنسج على منوالها.

وانتهت صناعة التأليف فى علماء المغرب، على صناعة أهل المشرق، لشيخ شيوخ العلماء فى وقته، ابن البناء الأزدى المراكشى، فى جميع تصانيفه، أوجب ذلك براءة نسبه من البداوة، وملكته فى التصرف، التى هى نتيجة تحصيله.

ولم يظهر من علماء فاس شىء من التآليف المرتجلة ولا الملخصة، إلاّ ما كان سبيله النسيج بها على ما هى عليه فقط، كما فى تأليف المدونة المنسوبة للشيخ أبى الحسن وهى التى اعتنى بها طلبته، وبنوها على ما قيدوا عنه من فوائد المجلس، وذلك كله فى العشرة الرابعة من المئة الثامنة. ثم تلاهم طلبة الشيخ الجزولى على الرسالة، وتعددت تلك التقاييد أيضًا، ونسبة إلى الشيخ وإنما له فيها ما قيد عنه فى المجلس. واختلف نظر الشيخين بحسب تعدد

السَّلَكات[1]، فقيد كل طالب ما سمع. فلا يقال فى هذه تآليف، لكونها منسوخة من أماكن معزوة.

والعلة فى ذلك كون صناعة التعليم، وملكة التلقى، لم تبلغ فاسا، كما هى بمدينة تونس، اتصلت إليهم من الإمام المازرى، كما تلقاها عن الشيخ اللخمى، وتلقاها اللخمى عن حذاق القرويين، وانتقلت ملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السلام، مفتى البلاد الإفريقية وأصقاعها، المشهود له برتب التبريز والإمامة، واستقرت الملكة فى تلميذه ابن عرفة رحمه الله، وفى الشيخ ابن الإمام التلمسانى. ونجب من طلبة ابن الإمام تلميذه الإمام أبو عبد الله الشريف، شارح الجمل وانتهت طريقته لولده أبى يحيى المفسر العالم. واستقرت أيضًا طريقة ابن الإمام، فى تلميذه سعيد بن محمّد العقبانى، وانتهى ذلك إلى ولده شيخنا أبى الفضل قاسم العقبانى، رحمهم الله جميعا.

قال ابن خلدون، ولمن ذكرنا من أهل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم، وملكة التلقى. يعنى بذلك الشريف والعقبانى رحمهما الله تعالى، قال: لكونهما ألفا التصانيف البعيدة، وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع.

قلت: وكذلك بلغ رتبة التبريز فى تحصيل العلم، كل واحد من ولديهما، الفقيه السيد أبو القاسم بن سعيد، والفقيه الأوحد السيد أبو يحيى الشريف، إذ بلغ درجة الإمامة والفتيا. وأما الإمامة ابن عرفة، فانتفع به جماعة، فكان أصحابه كأصحاب سحنون: أئمة فى كل بلد، فمنهم أيضًا من بلغ درجة التأليف ووقع الاتفاق على إمامته، وتقدُّمه وسُمُوّ رتبته، كشيخنا الإمام الحافظ المحصل أبى القاسم بن أحمد البرزلى، مفتى البلاد الإفريقية، ومؤلف كتاب الأسئلة الحاوية للنوازل والفتاوى. ومنهم شيخنا الإمام الحافظ

(١) فى هامش المطبوع: يراد بالسلكات عند المغاربة: المرات التى يقرئ فيها الشيخ تلاميذه الكتاب، المرة: سلكة.

المجتـهد، صاحب التصـانيف المفيدة، أبو عـبد الله محمّـد بن مرزوق، وله «المنزع النبيل، فى شرح مختصـر خليل»، و«شرح التهذيب»، وغير ذلك من المسائل العلمية.

قلت: إنما اقتصـرت على ذكر هذين الشيخين الإمامـين، لما لهما على من المشيـخة، ولشهرتهـما بالتآليف، التى تقـوم مقام الشاهدة لما قلتـه، حتى نبعد عن شبه التعصب.

وأما مـن نجب من تلامذة شـيخ شيـوخنا ابن عرفـة، وتمكن من ملكة التـعليم، فـخلق يطول عددهم، فـمنهم من أدركناه، وأخـذنا عنه، وأجـزنا مروياته، ومنهم من لم ندركه، نفع الله بجميعهم، وأعاد علينا من بركاتهم.

قلت: هنا انتهت ملكة الـفقه من علماء القـيروان عن المازرى، إلى من ذكرنا، ثم إلى من لقينا.

وأما ملكة العلوم النظرية، فهى قاصـرة على البلاد المشرقية، ولا عناية لحذاق القرويين والإفريقيين إلاّ بتحقيق الفقه فقط. ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفـقيـه ابن زيتون إلى المشـرق، فلقى تلاميـذ الفخـر بن الخطيب، ولازمهم زمـانا، حتى تمكن من ملكة التـعليم، وقدم إلى تونس، فـانتفع به أهلها، وانتهت طريقـته النظرية إلى تلميذه ابن عبد السـلام المذكور، واستقل تلميـذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقـة، وكذلك أبو عيسى مـوسى ابن الإمام التلمسانى المذكور ولهذا تجد أثر العلوم النظرية بتلمسان.

قال الإمام ابن خلدون وغيره من أئمة التاريخ:

لم نشاهد فى المئـة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس، بل فى جـميع هذه الأقطار، لأجل انقطاع ملكة التـعليم عنهم، ولم يكن منهم من له عناية

بالرحلة، بل قصرت هممهم على طريق تحصيل القرآن، ودرس التهذيب فقط. نعم أخذوا شيئًا من مبادئ العربية من أهل الأندلس، القادمين عليهم من سبتة وغيرها، باستدعاء ملوك بنى مرين. قال: ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يقرئ «الكتاب» كما هو متداول بين أهل الأندلس، مثل ابن أبى الربيع والشلوبين وغيرهما، لوجود ملكة النحو فى قطر الأندلس، بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالمشرق، كما ارتحل أعلامهم إلى بغداد فى تحصيل الفقه من الأبهرى، وكذا يحيى بن يحيى عن مالك، وغير واحد وكذلك علوم الحديث وغيره، كرحلة الإمام الحافظ أبى بكر بن العربى.

ولّما كمل غرض أبى عنان، كبير ملوك بنى مرين، من بناء مدرسته بالمتوكلية بفاس، وكان بعيد الصيت فى علو الهمة، قال انظروا من يُقْرِئُ بها الفقه، فوقع الاختيار على الشيخ الصرصرى الحافظ، ولما جلس بها واتسع صيته، وجه إليه أبو عنان المذكور من يسأله فى مسائل التهذيب، التى انفرد باتقانها وحفظها، وطالبه بتحقيق ذلك وإتقانه، وحسن تلقيه، ولا أدرى المنتخب له: هل هو أبو عيسى موسى ابن أبى الإمام المذكور آنفا، أم السيد الشريف أبو عبد الله شارح «الجمل»، المتقدم الذكر، أو هما معا، فطالباه بتحقيق ما أورده من المسائل عن ظهر قلب، على المشهور من حفظه، فانقطع انقطاعا فاحشا، ولما أضجره ذلك نزل عن كرسيه، وانصرف كئيبا، فى غاية القبض، ولما اشتهر ذلك عنه وجه إليه أبو عنان الملك المتقدم الذكر، فلما مثل بين يديه آنسه وسكنه، ثم قال له: أنا أمرت بذلك، كى تعلم ما عندك من العلم، وما عند الناس، وتعلم أنَّ دار الغرب فى كعبة كل قاصد، فلا يجب أن تتكل على حفظك، وتقتصر على ما حصل عندك، ولا يمنعك ما أنت فيه

من التصدى، عن ملاقاة من يرد من العلماء، والتنزل للأخذ عنهم، ولا يقدح ذلك فى رتبتك عندنا، إن شاء الله تعالى.

لخصت هذه الحكاية من تاريخ القيسى، فانظرها.

قلت: وعكس هذا وقع لفقهاء فاس فى أواسط المئة الثامنة، لما شرّق السلطان أبو الحسن رحمه الله، وانتهت به درجة الاستبداد والاستقلال ببلاد إفريقية، فظهر فقهاء المغرب ممن صحبه، على فقهاء تونس، لحفظهم كتاب التهذيب عن ظهر قلب، وزعيم فقهاء المغرب يومئذ الرجل الصالح، أبو عبد الله السطى رحمه الله ونفع به، إلى أن جاءت نوبة الشيخ ابن عبد السلام، وعقد مجلسه بمحضر السلطان المذكور، ومن معه من الفقهاء والنحاة والكتاب والرؤساء، وتوجهت مطالبة فقهاء المغرب له، فكان رحمه الله على ما وصفه به من أرخ الواقع، كأنه بحر تلاطمت أمواجه، فكان يقطعهم واحدًا بعد آخر، وتلميذه ابن عرفة كذلك، إلى أن قال ولِىُّ الله المنصف، أبو عبد الله السطى للسلطان: يا على، كذا يكون التحصيل، وكذا يقرأ الفقه، ولو لم يكن بتونس إلا هذا الإمام لكان بها كل خير! فلا بد من ملازمة هذا لهذا المجلس، حتى ينتفع به أصحابنا، وينتفع بطريقه. وذلك هو السبب فى التنويه بالشيخ ابن عبد السلام رحمه الله، على أنه كانت رغبته فيما عند الله إلى أن مات.

قلت: وإنما ذكرت هذه القضايا تنشيطا للناظر، وتحميضا للذاكر، ولم نزل نسمع من أئمتنا ومن ذكرنا، فى مجالى دروسهم، ما يشبه ما ذكرناه من آثار السلف لما فى ذلك من تقوية باعث الطالب على كيفية التحصيل والدرك، والجد فى إدراك أسبابه، وأخذ العلم من أربابه، والولوج إليه من بابه.

وكان الإمام المازرى رحمه الله كثير الحكايات فى المجلس، ويقول: هى جند من جنود الله، حتى كان لا يخلى مجلسه منها.

***

تنبيه: إياك أن تظن القصور بمن تصدى للتقييد على «التهذيب»، من طلبة الشيخ أبى الحسن، وكذا من تلاهم من طلبة الشيخ أبى زيد عبد الرحمن الجزولى، ويقرع سمعك ما أفتى به الشيوخ، ومن له فى العلم الرسوخ، أنَّ تقاييد «التهذيب» و«الرسالة» لا يعول عليها فى الإقراء، ولا يوثق بشىء منها فى الفتيا، وأنَّ من عول عليها فى الإقراء يرد المرتب.

فاعلم شرح الله صدرك، أنَّ القوم كانوا أهل صلاح وورع، وجد فى طلب الفقه، وإفراط حرص ومثابرة على درس «التهذيب»، وحفظ ما يتعلق به من النصوص فقط، فبنى كل واحد فى تقييده على ما سمعه من الشيخ، وما ناسب اجتهاده ونظره من تقاييد الفقهاء، مثل ابن يونس، واللخمى، والتنبيهات، وابن رشيد واختلف رأيهم فى ذلك، فمنهم الموجز، ومنهم المطنب، وباب الفتيا باب احتياط، فلا بد للمفتى من مباشرة الكتب المروية، والأمهات الأصلية، ولا ينبغى له الاقتصار على الواسطة، إذ لا يؤمن من خلل أو تصحيف، لفقد ملكة التأليف، وإنما الغالب على طباعهم تغفل البداوة، فقدح ذلك فى صناعة التصنيف، وكيفية التأليف، والقوم أهل دين متين كما وصفنا، فلا يقدح ذلك فى مراتبهم، ولا يثلم مناصبهم.

ووجه ثان: ذكر أهل الاصول فى باب الاجتهاد أنَّ مجهول الحال لا تقبل فتياه كالراوى، وإن أصاب كل واحد، ولا يخفى عليك وقوع مثل هذا لأصحاب تلك التقاييد.

ووجه ثالث: مبنى ما أفتى به العلماء مـن عدم التعويل على شيء منها فى الإقراء والفتايا، هو والله أعلم، لما اشتـملت عليه من ذكر الشيء وضده، على أسلوب واحـد، وقد وقفت على ذلـك فى جل تلك التقـاييد، وهو أن المقيد يجـمع للخلاف المذهبى ما ليس فيـه، بل هو خارج المذهب، وقد وقع ذلك فى مواضع غير واحـدة من تلك التقاييد، كما نقـل بعضهم الخلاف فى التنفل فى الصحراء قبل صلاة العيد وليس كذلك، بل الخلاف فيما إذا صليت فى المسجد، وأما فى الصحراء فلم يقل به إلا الشافعى. ومثل ذلك ما وقفت عليـه فى حكم السـواك، قال المقيـد على كلام الشـيخ فى باب جـمل من الفرائض: واخـتلف فى حكم السواك على قـولين: فقـيل إنه واجب، وقيل سنة، فأنت ترى هذا الخلاف، ولم يقل بوجوبه إلاّ أهل الظاهر، عملا بصيغة ظاهر الحديث الوارد فى ذلك. وكذلك وقفت على الخلاف فى غسل الجمعة، فقال المقيد: اختلف فيه: فقيل فرض، وقيل سنة. وقد علمت أيضًا قول أهل الظاهر بوجـوبه، عملا بظاهر الحـديث. وكذا الغـسل: هل هو للجمـعة أو لليـوم؟ فقـال المقيـد: اختلف فى ذلك على قـولين: وقد علمت قـول أهل الظاهر، وأنه لليوم، حتـى لو اغتسل بعد الصلاة لأجـزأه. وكذا وقفت على القول ببطلان صلاة من أسقط الخشوع من صلاته، على القول بفرضيّته، ولم يقل بذلك إلا أهل التصـوف. وكذا القول بموجب المضمضـة والاستنشاق فى الوضـوء والغسل، وقـد علمت نصوص أهل المذهب فى هذه المسـائل. ومن هذا فى تلك التقاييد ما لا يحصى كثرة لمـن تأملها؛ وفيما ذكرنا كفاية، فلعل هذا هو سبب نقد العلماء فى مجموع تلك التقاييد. والله اعلم.

تنبيه: احذر أيّها الناظر، شرح الله صدرى وصدرك، أن يقع فى نفسك أنَّ عجز هؤلاء السادات عن صناعة التأليف، والحذق فى التصنيف، وعدم الاقتدار، على الترجيح والاختيار، وعدم القيام بمواد مدارك المحققين والنظار، يوجب قدحا فى مناصبهم، أو وصما فى مراتبهم، فتكون ممن أساء الظن بالسلف، وعرض نفسه إلى الهُوىّ فى مهاوى التلف، بل أوجب ذلك ما أصلناه وقدمناه، من أنَّ القوم كانوا أهل عمل ودين متين، وجرى على سنن السلف الأقدمين الصالحين العاملين، فشغلهم ما أخذوا فيه من كدّ العمل، وإثقال التقلل والمجاهدة، وتحرى الحلال، والزهد والإقلال، عن تتبع مواد التحقيق، إلى فقد الملكة النظرية من هذا القطر، وانقراضها منه منذ زمان إلى عصرنا هذا، وما حكوه من عدم الترتيب، وقلة العزو للأقوال، حال من صرف عنايته لتقييد العلم من حيث هو، ولم يتكلف ذكر مشهور، ولا ما عليه الجمهور، أو يكون اعتمد فى تقييد ما قيد على ما سمع من الشيخ فى السلكات، فيعذر على هذا ولا يفند.

والتقييد المعزو للشيخ أبى الحسن أقل تكلفا لا محالة، إلاّ أنّه لا يخفى ما فيه من ضعف الاختيار، عند التحقيق والاستبصار.

أعاد الله علينا من بركاتهم، ونفعنا بهم.

وما ذكرته فى هذا الاستطراد مست الحاجة إليه، كما مست حاجة أئمة الحديث، على جلالتهم وورعهم، إلى تبيين الضعيف والمجرّح، وتدوين أخبار الضعفاء، ومن نسب إليهم وَهَم أو تدليس أو وَهَن، وهذا لولا مسيس الحاجة، لم ينبغ أنَّ يلتفت إليه، والله الموفق بفضله.

ثم قال هذا العالم فى موضع آخر:

تنبيه: ولا يعترض على ما وقع للشيخ، من الحكاية التى حدثنا بها شيخنا الإمام البرزلى رحمه الله، قال: لما قدم الفقيه القباب، حافظ مدينة فاس، وزعيم فقهائها فى عصره، يريد أداء فريضة الحج، فاجتاز بحضرة تونس، فحضر مجلس شيخنا ابن عرفة، هو ومن كان معه من الفقهاء، فاستطرد الشيخ رحمه الله الكلام إلى أن قال: وكثيرا ما نجد فى تقييد الشيخ أبى الحسن: «يؤخذ من هذه المسألة»، فلا أدرى صورة ذلك الأخذ ما هو؟ هل هو من طريق الاستقراء، أو الاستنباط، أو القياس، أو المفهوم؛ وكل قسم من هذه الأقسام يفتقر إلى شرط، ولا شىء من ذلك؟ فقال القباب لأصحابه بعد انصرافهم: علمتم ما تحصل بأيدينا من الفقه، وصح عندكم أنَّ الملكة التامة فى التحصيل والتصرف، إنّما هى فى قوى أهل تونس ومن يليهم من أهل المشرق، وأنَّ قصارى ما عندنا وعند مشايخنا إنّما هو حفظ النصوص، وإبقاؤها على ما هى عليه، وأنَّ ملكة القروبين انتقلت إلى الإفريقيين.

فهذا الواقع من الشيخ، ليس هو بالمعارض لما وقع فى جوابه، من اعتبار المفهوم، وإنّما هو بحث فى شرط المفهوم، وكيفية الاستنباط خاصة، فاعلم ذلك.

تنبيه: لا يقع فى ذهنك قصور الشيخ فى قوله: «يؤخذ من هذه المسألة»، وأنّه خفى عليه كيفية الأخذ. فاعلم، أرشدك الله، أنَّ الشيخ أبا الحسن، كان إمام وقته فى فقه المدونة، وهو المستقل برياستها بعد شيخه الفقيه راشد، ما أخذ عنه حتى ظهرت على يديه الكرامات الخارقة، فى شفاء أصحاب العلل المزمنة وغير ذلك، ولم ينظر فى الفقه حتى أتقن علم

الفرائض، وفنون البلاغـة، وتلقى ذلك من أربابه، وارتحل، وانتقل إلى تازا، فلازم أهـل اللسان، وفـرسان المعـارف وقتـا طويلا، ثم اعتكف علـى قراءة «التهذيب»، ولازم الفـقيه راشدا، واقتصـر عليه، وكان الفقيـه راشد لا ينفذ بمدينة فاس حكما، ولا جوابًا فى نازلة، حتى يحضره، ويعتنى به، فلم تُخْطِ فراسته فيه؛ وكان لا يحـجر عليه فى القراءة، بل يقرأ من «التهذيب» من أى مكان شاء، وقد صدقت فراسته فيه، فكان فى ميزان حسناته يوم القيامة.

واستيفاء التعريف بالشيخ، وذكـر محنته بالقضاء، وسبب عزله، وذكر وفاته، يخرجنا عن الاختصار.

انتهى ما مست الحاجة إليـه من كلام هذا المتأخر، ونقلت أكثره بلفظه، تبركا بعبارته، التى تلوح عليها إمارات الصالحين، وبالله التوفيق.

ولنذكر كلامنا من هذا المعنى، فنقول:

قال الإمـام أبو عبد الله الأُبِّىّ رحـمه الله تعالى فى شـرح مسلم، عند كلامه على قوله ﷺ: «أو علم ينتفع به بعده»:

كان شيخنا أبو عبد الله ابن عـرفة يقول: إنّما تدخل التواليف فى ذلك إذا اشتـملت على فائدة زائدة، وإلاّ فـذلك تخسـير للكاغد. ونعنـى بالفائدة الزائدة على ما فى الكتب السابقة عليـه، وأما إذا لم يشتمل التأليف إلاّ على نقل ما فى الكتب المتقـدمة، فهو الذى قال فيه: إنّه تخـسير للكاغد، وهكذا كان يقول فى مجالس التـدريس، وإنّه إذا لم يكن فى مجلس التدريس التقاط زائدة من الشيخ، فـلا فائدة فى حضـور مجلسه، بـل الأولى لمن حصلت له معرفة بالإصلاح، والقدرة علـى فهم ما فى الكتب، أن ينقطع لنفسه، ويلازم النظر؛ انتهى.

ونظم فى ذلك أبياتا، وهى:

إذا لم يكن فى مجلس الدرس نكتة بتقرير إيضاح لمشكل صورة
وعزو غريب النقل أو حل مقفل أَوِ اشكال أبدته نتيجة فكرة
فدع سعيه وانظر لنفسك واجتهد ولا تتركن فالترك أقبح خلة

وكنت قلت فى جواب أبياته هذه:

يمينا بمن أولاك أرفع رتبة وزان بك الدنيا بأحسن زينة
لمجلسك الأحظى الكفيل بكل ما على حسن ما عنه المحاسن جلت
فأبقاك من رقاك للناس رحمة وللدين سيفا قاطعا كل بدعة

وإنى فى قسمى هذا لبار، فلقد كنت أقيد من زوائد إلقائه، وفوائد إقرائه، على الدول الخمس، التى كانت تقرأ بمجلسه، وهى: التفسير، والحديث، والدول الثلاث التى بالتهذيب، نحو الورقتين كل يوم، مما ليس فى كتاب، فالله المسئول أنَّ يقدس روحه، فلقد كان الغاية، وشهادة ذلك ما اشتملت على تواليفه من ذلك، وناهيك بمختصره فى الفقه، الذى ما وضع فى الإسلام مثله، لضبطه فيه المذهب: مسائل وأقوالا، مع الزيادة المكملة، والتنبيه على المواضع المشكلة، وتعريف الحقائق الشرعية. انتهى كلام الأبى.

ورأيت بخط بعض الأكابر ما نصه: المقصود بالتأليف سبعة: شىء لم يسبق إليه فيؤلَّف، أو شىء أُلِّف ناقصا فيكمَّل، أو خطأ فيصحح، أو مشكل فيشرح، أو مطول فيختصر، أو مفترق فيجمع، أو منثور فيرتب.

وقد نظمها بعضهم فقال:

ألا فاعلمن أنَّ التآليف سبعة لكل لبيب فى النصيحة خالص
فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ وإبداع حبر مقدم غير ناكص
وترتيب منثور وجمع مفرق وتقصير تطويل وتتميم ناقص

وألفيت بخط شيخ شيخنا، الإمام القاضى سيدى عبد الواحد الونشريشى، رحمه الله، ما نصه: ألفيت بخط والدى، رحمه الله، على طرة من هذا المحل، وأعنى كلام الأبى السابق، ما نصه:

قلت: من هنا يعلم أنَّ انطلاق اسم المدرس على المقتصر على نقل تقاييد الرسالة والمدونة، من غير فتش ولا تنزيل، ولا كشف واستظهار بغيرها: مجاز، لا حقيقة؛ وهذا الوصف كاد أن يعم أهل الوقت أو عمهم، فنسأل الله العظيم المغفرة من التطفل، وتعاطى ما ليس فى المقدور.

وقال أيضًا: تأمل هاهنا الثناء على شيخ الإسلام، الإمام أبى عبد الله ابن عرفة، أسكنه الله دار السلام، وعلى تآليفه، لا سيما مختصره الفقهى، الذى أعجز معقوله ومنقوله الفحول، خلافا لبعض القاصرين من طلبة فاس، فإنهم يقولون: ما يقول شيئًا، يطفئون نور الله، ويحتقرون ما عظم الله، ومستندهم فى ذلك بزعمهم حكاية تؤثر عن الشيخ المحقق أبى العباس القباب، لا رأس لها ولا ذنب، وحاشاه من ذلك، وما أراهم فى هذا إلاّ كما قال الأول:

وكم من عائب قولا صحيحا وآفته من الفهم السقيم

ولقد حبس ملوك المغرب، رضوان الله عليهم، بخزانتى القرويين والأندلس، من هذا الديوان المبارك نسخا عديدة، ثم لا يُعَرِّج عليها للمطالعة

فى هذا الوقت أحد من الطلبة الحضرة، شتاء ولا صيفا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، بخلاف ما قيد عن الشيخ الجزولى، وأبى الحسن الصغير، فإنك تجدهم يزدحمون عليها فى كل زمان، وخصوصا فصل الشتاء، لا يلحق الآخر منها ورقة واحدة، مع كثرة عددها بحيث ذكر، بل تجدهم يتنافسون فى اقتنائها، بالأثمان العظيمة المجحفة، ومن ملك منهم المسبع من الجزولى، وتقييد اليحمدى عن أبى الحسن، أو حصلت له عناية بنقلها، فهو عالم العلماء بأسره، وحائز مذهب إمام دار الهجرة على التمام، والقائم بأمره. ولقد كان الحسن المغيلى عندهم فى أعلى طبقة من الفقه والتفقه، لقيامه على مسبع الجزولى نقلا، ولقد شاهدتهم يتساقطون كالفراش، على نسخة من الجزولى بخزانة القرويين، وزعموا أنها بخط أبى الحسن المذكور، وهى مشحونة بالتصحيف، تعمى البصر والبصائر، نور الله قلوبنا بذكره، وعمر ألسنتنا بشكره، ووفقنا لما فيه رضاه عنا.

انتهى ما ألفى بخط الشيخ سيدى أحمد الونشريشى، رضى الله عنه.

أقول: ولقد أحسن بعض الأكابر من طلبة ابن عرفة، رحمه الله تعالى إذ يقول فى مدح مختصره المذكور:

إذا ما شئت أن تدعى إماما ... فخذ فى درس مختصر الإمام

تنال به السعادة والمعالى ... وتضحى ظاهرا بين الأنام

كتاب قد حوى من كل علمٍ ... كبستان سقى غيث الغمام

فدع عنك السآمة وادرسنه ... وعن عينيك دع طيب المنام

وحل بدره جيد المعالى ... تفز بالخلد على أعلى مقام

وما أشار إليه الشيخ الونشريشى من قوله: «ومستندهم فى ذلك بزعمهم حكاية تؤثر عن القباب، لا رأس لها ولا ذنب»، أشار به إلى ما يزعمون عن الشيخ القباب، وقد نقلها شيخنا الإمام سيدى أحمد بابا، أبقاه الله فى تكميله لديباج ابن فرحون، ونصه[1]:

ويقال إنّه لما حج اجتمع فى تونس بابن عرفة، فأوقفه على ما كتب من مختصره الفرعى، وقد كان شرح فى تأليفه، فقال له القباب: ما صنعت شيئًا. فقال له ابن عرفة: ولمه؟ قال: لأنه لا يفهمه المبتدئ، ولا يحتاج إليه المنتهى. فتغير وجه ابن عرفة، ثم ألقى عليه مسائل أجابه عنها القباب.

ويقال إنَّ كلامه هو الحامل لابن عرفة على أن بسط العبارة فى أواخر المختصر، وبين[2] الاختصار، والله اعلم. انتهى كلام شيخنا أبقاه الله.

قلت: رأيت بخط ابن داود الأندلسى ثم التلمسانى، ما نصه: وجدت بخط الرملى ما نصه: حدثنا الشيخ ابن عرفة رضى الله تعالى عنه، عن الشيخ القباب الفاسى، عن الآبلى، قال: أورد السلطان أبو عثمان على فقهائه الحلة، فى قول عائشة رضى الله عنه عنها، فى حديث مسلم: «فتوفى رسول الله ﷺ، وكان مما يُقْرَأُ: «خمس رضعاتٍ يحرمن». انظره فى مسلم. قال: يلزم على هذا الخلف فى خبرها، رضى الله تعالى عنها، أو عدم حفظ القرآن، وكلاهما محال. قال: فسكت الحاضرون بأجمعهم. قال: فقلت: القرآن على قسمين مُتَحَدَّى به، وهو المعجز، وغير متحدَّى به، والأول هو المحفوظ، بخلاف الثانى بدليل هذا الحديث، قال: فقبله الحاضرون كلهم.

ولنورد هنا تمام الحكاية: وهذا يحتاج إلى دليل. وشنعه الأستاذ أبو سعيد بن لب غاية التشنيع، وقال: كون القرآن على قسمين قسم معجز

(١) نيل الابتهاج، ج١ ص ١٠١.

(٢) فى نيل الابتهاج: «وليّن».

متحدى به محفوظ يصلى به، وقسم بخلاف ذلك يحتاج إلى دليل ولا يوجد. انتهى.

ولو قيل: أنّه لم يبلغها النسخ، كما أجابوا به فى حديث ابن مسعود فى حديث سورة: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١﴾ [الليل]، لكان أبين وأحسن. وذكر ابن الخطيب القسنطينى أنها فى أسئلة مجموعة، منسوبة إلى السلطان أبى عنان رحم الله تعالى الجميع. انتهت الوجادة. ونقلتها بطولها لما فيها من الفائدة. والمسألة اعتاد الكلام عليها فى «مفتاح[1] الوصول إلى بناء الفروع على الأصول» للسيد أبى عبد الله الشريف، فراجعها منه. انتهى كلام ابن داود رحمه الله.

قلت: وبالجملة فإمامة الشيخ ابن عرفة لا تنكر ولا تجحد ومعرفته بالفنون وتبريزه على أهل عصره، مما يعترف به كل منصف لوذعى أوحد، ولله در صاحب «الشقائق النعمانية، فى علماء الدولة العثمانية» حيث صرح بأن ابن عرفة فاق أقرانه فى فقه المالكية بالمغرب، آخر الثامن. ونص كلامه، عندما ترجم لصاحب القاموس.

* * *

(١) فى سائر الأصول: «مرتقى الوصول...» والمثبت من نفح الطيب ج٥ ص ٢١٢ نقلا عن ابن داود كما هنا. هذا وقد طبع الكتاب عدة طبعات بعنوان: مفتاح الوصول، كرواية النفح.

obeikandi.com

ترجمة الفيروزابادى، عن الشقائق النعمانية

هو المولى الفاضل مجد الدين أبو الطاهر، محمّد بن يعقوب بن محمّد الشيرازى الفيروزابادى.

كان رحمه الله تعالى ينتسب إلى الشيخ أبى إسحاق الشيرازى، صاحب التنبيه، وربما يرفع نسبه إلى أبى بكر الصديق، رضى الله عنه، وكان يكتب بخطه: «الصديقى».

دخل بلاد الروم، واتصل بخدمة السلطان بايزيد بن السلطان مراد، ونال عنده رتبة وجاهًا، وأعطاه السلطان مالاً جزيلاً، وأعطاه الأمير تيمور خمسة آلاف دينار، ثم جال البلاد شرقًا وغربًا، وأخذ عن علمائها، حتى برع فى العلوم كلها، لا سيما الحديث والتفسير والفقه. وله تصانيف كثيرة، تنيف على أربعين مصنفًا، وأجل مصنفاته «اللامع المعلم العجاب، الجامع بين المحكم والعباب»، وكان تمامه فى ستين مجلدة، ثم لخصها فى مجلدتين، وسمى ذلك الملخص بـ «القاموس المحيط» وله تفسير القرآن العظيم، وشرح البخارى والمشارق، وكان لا يدخل بلدة إلاّ وأكرمه واليها، وكان سريع الحفظ، وكان يقول: لا أنام حتى أحفظ مائتى سطر، وكان كثير العلم والاطلاع على المعارف العجيبة؛ وبالجملة كان آية فى الحفظ والاطلاع والتصنيف.

ولد رحمه الله تعالى سنة تسع وعشرين وسبع مئة بكارزين، من أعمال شيراز، وتوفى قاضيا بزبيد، فى بلاد اليمن، ليلة العشرين من شوال، سنة ست أو سبع عشرة وثمان مئة، ودفن بتربة الشيخ إسماعيل الجبرتى.